(2)

رحلة الصقل والولادة

مقدمة

بعد ذلك التاريخ الذي لم يحدد علم النفس والذي يتميز ببعض المحـــاولات الفكريـــة والتي دارت حول أفكار أفلاطون وأرسطو في ثنائية الجسم والعقل ظلت أوروبا فـــي العصور الوسطي قابعة تحت وطأة هذه الأفكار حتى ظهور الثورة الفرنسية التي جاء بعدها ظهور المناهج وانفصال العلوم الواحد تلو الأخر عن الفلسفة وذلك بعد تطبيق المناهج العلمية وهي ذاتها ما أدت إلى ظهور مدارس في علم النفس .

وكان أول ما ظهر يسميه بعض المؤرخين " بالنظام القائم " وهذا يعني أن هذا النظام جاء بعد فترة لا يوجد فيها نظام لدراسة النفس الإنسانية ، وهذا النظام هو النظـــام الارتباطي العقلي الاستبطاني القديم) بالنسبة لنا (والذي استحدثه " فونـــت " لأول عهده بالتجربة .

وقد سمى كذلك بعلم النفس الحديث ، وذلك تمييزاً له عن سيكولوجيا ديكـــارت . أو بالمعنى الأكثر وضوحاً تمييزاً له عن علم النفس في ما قبل فونت.

وقد ظهرت المدارس في علم النفس فيما بعد ثائرة على المدرسة البنائية) النظـــام القائم .

انفصال علم النفس عن الفلسفة :

ساهم في ظهور علم النفس كعلم مستقل العديد من المؤثرات منها الفلسفية ومنها العلمية ومنها التربوية .. ويمكننا أن نوجز أهم المؤثرات فيما يلي :

النزعة الاختبارية في الفلسفة والتي بدأها جون لوك والتي تؤكد قيمة الحواس كمصادر للمعرفة الموثوقة .

نظرية النشوء والارتقاء الدارونية التي تستند إلى طرق الملاحظة المنظمة .

الطرق التجريبية التي كانت تتم في معامل الفيزيولوجيا لموضوعات تقع في حقل علم النفس .

تضافرت هذه المؤثرات لتهيئ الفرصة ليشهد علم النفس الاستقلال عام1879 م ويقف إلى جانب غيره من العلوم الانسانية والطبيعية على يد " وليم فونت . "

وليم فونت والمدرسة البنائية :

يؤرخ لعلم النفس علماً بتاريخ1879 م وذلك منذ بدأ فونت بإجراء تجاربه في علم النفس وكان ذلك في مدينة ليزنبرج في شمال ألمانيا وكان ذلك يحدث في أول معمل سيكولوجي عرفه العالم بالمعني الإرادي أو التنفيذي وقد تطور ذلك المعمل من بعض الغرف المتهالكة في مبنى متهالك الى مبنى أفضل سنة1897 م . ومن ذلك المعمل تخرج الرعيل الأول من علماء النفس من أوروبا ومن أمريكا ومنهم :

كيلبه ، وليمن ، كريلين ، وفي أمريكا استانلي هول ، وكاتل ، وإنجل ، تتشنر، ووتمر ، وكان هؤلاء العلماء بمثابة النواة المنتجة كما سيتضح فيما بعد .

ما يميز النظام القائم) المدرسة اللبنانية : (

ارتباطي يري أن الإحساسات الأولية عبارة عن عناصر يتكون منها بالتركيب والارتباط مدركات وصور ومشاعر .

موضوع دراسته الشعور) الوعي (من وجهة نظر بنائية) أهتم بدراسة الوعي أو الشعور من خلال تحليل الكل ، إلى إجزائه أو عناصره أي تحليل الشعور ، إلى عناصره المكونة له (كان هو الطريق الذي يقود فونت إلى فهم الشعور .

فكان ينصب بالدراسة على عناصر الخبره الشعورية وعلاقتها الميكانيكية بالجهاز العصبي وكان يرى أن مجموع هذه العناصر يكون في الوعي والتفكير والمعرفة .

وقد فسر عملية الفهم والتي تشمل التفكير بأنها نشاط معرفي للربط بين المحتويات العقلية والمدركات الحسية والمشاعر .

كذلك اهتم فونت بوصف الإحساسات الأولية كالحس بالنعومة والخشونة والبرودة واللون وكيف أنها تتكون منها المشاعر والأفكار نتيجة إنتظامها واتصالها مع بعضها البعض بمعنى أخر " مجموعة الاحساسات منتظمة بشكل معين لتكوين المشاعر والأفكار "هي التركيبة التي اهتم فونت بتحليلها إلى عناصرها الأولية وكان منهجه في ذلك الاستبطان ثم التعبير لغوياً عن المشاعر بعد التعرض لخبرات انفعالية أو لرؤية أضواء واللون أو لسماع أصوات وكان يخالط منهجه الاستبطاني) التأمل الباطني (بعض التجريب .

المنهج المستخدم هو الاستبطان من قبل مجموعة من العلماء المدربين إضافة إلى شيء من التجريب على فيزيولوجيا العقل والاهتمام بدراسة وقياس أزمنة الرجع في العمليات العقلية بوجه عام .

وقد استنتج فونت من تجاربه :

أن صفه المنبه وشدته هما العنصران الأساسيان لأي أحساس .

أن المشاعر يمكن أن توصف في ضوء اللذة والألم) التوتر والإرتياح) (الإثارة والإحباط (حيال المنبه الذي يدركه الفرد .

)أحساس ---- أدراك ---- مشاعر ( )خبره شعورية(

وقد سمى أو عرف علم النفس في ضوء هذا المنهج والأسلوب والمادة) علم الشعور أو علم الخبرة . (

بالرغم من بساطة التجارب التي كانت في ذلك المعمل إلا أن كثير من علماء النفس تتلمذوا على يد فونت ومنهم وأهمهم تيتشز (1867-1927)

حاول تتشنر وبكل قوة نشر البنائية في أمريكا من خلال العديد من المنشورات والأبحاث ولكن هذه النظرية أو المدرسة أنتهت بموت تتنشر .

ولم تختلف وجهة نظر تتنشر عن وجهة نظر المدرسة التي ينتمي إليها .فقد فسر العمليات العقلية العليا إجمالاً من منطلق بنائي حيث يرى أنها مجموعةأفكار تكونت من مجموعة الصور الشعورية – المدركة حسياً – أو الخيالات .

ويفسر تتشنر عملية الفهم والتفكير من خلال نظريته " في تقرير المعنى " والتي تقول بأن معاني الأشياء تأتي من ارتباط الاحساسات بالمجال الذي تحدث فيه أو من خلال ترابطها بالأحساسات الأخرى السابقة .

وقد أضاف تتشنر إلى عنصري فونت لأي إحساس عنصر ثالثاً وهو الوضوح وأعتقد أن الخبرة الشعورية تتكون من ثلاثة عناصر .

الاحساسات الجسمية(المناظر والأصوات) .

الانفعالات والمشاعر (تشبه الإحساسات ولكنها أقل وضوح)

الصور(الذكريات والخبرات السابقة) .

مثلاً عندما نرى تفاحة فإننا نربط بين الحس الجسمي وما نراه وبين مشاعرنا محبة التفاح أو كرهه (والصور) ذكرياتنا عن غيرها من التفاح .

تتكون من هذه العناصر) عناصر الخبرة الشعورية (فكرتنا عن التفاحة التي نراها .

ولكن في مقابل علم النفس الخبره أو المضمون الذي أكده فونت في شمال ألمانيا ظهر مقابله علم نفس الفعل أو العمليات العقلية على يد برنتانو في النمسا وجنوب ألمانيا وعرف بسيكولوجيا الفعل أو دراسة الفعل بدلاً من دراسته الخبرة أو المضمون ، ويرى بعض المؤرخين أنها تطوير لاتجاه المدرسة النبائية .

وقد نظرت مدرسة الفعل إلى أن موضوع علم النفس يكون دراسة عملية للأهداف الشعورية في ارتباطها بالبيئة الخارجية .

أي أن الفعل النفسي يكون نتاج للعوامل الداخلية والخارجية

وختاماً : حاولت المدرسة البنائية الربط بين الاتجاه الحسي والوضعي في كل من بريطانيا وفرنسا مع الاتجاه العقلي في ألمانيا) ركزوا على العمليات العقلية وعلى المدركات الحسية (ولكن تفسيراتهم للعمليات العقلية بقيت كما هي بنائية فيزيائية) حيث أعتبروا العمليات العقلية مجموعة لهذه المدركات الحسية . (

لم يكن لهذه المدرسة أمل في أن تبقى بعد موت تتشنر ولكنها أكسبت هذا العلم كثيرا من المعرفة حول الاحساس ، نشر تتشنر كتاباً لصفات الاحساس الأساسية يذكر فيه 32820صفة للإحساس بالنسبة للعين ،11600 صفة بالنسبة للأذن 4 صفات للإحساس بالنسبة للجلد ، وواحد للمفاصل .

ويذكر أنه يمكن مزج عنصر مع غيره وتتكون صور مختلفة) مدركات مختلفة حسب المزيج) العناصر . (

وقد ساهم في فناء هذه المدرسة تلقيها لعدد من الانتقادات أهمها ما يلي-:

الاستبطان تقطع عملية الشعور .

تباين نتائج البحوث الاستبطانية في نفس المجال .

عدم الموضوعية لأن كل فرد يصف خبراته الذاتية .

أن اللغة لا تعبر بدقة عن الفكر .

لا يمكن للباحث كشف صدق أو كذب المضمون .

الاختلاف في قدرات التعبير عن الشعور .

وقدمت هذه المدرسة بحوثاً في علم النفس وكانت مدرسة ساهمت في ظهور مدارس أخرى معارضة لتقدم فكر جديداً

المدرسة الوظيفية

نشئت هذه المدرسة في أمريكا و تنسب إلى وليام جمس والحقيقة أنها تأسست بقيادة وليم جيمس وعلماء أمثال جون ديوي ودور كايم وجمس أنجل .

كان وليم جمس متخصصا في الطب ألفا كتاباً في علم النفس ولم يكن أسمه مرتبطاً بأي حركة في علم النفس ولكن قدرته الفائقة في استنتاج وتركيب المبادئ النفسية وملاحظاته الذاتية والذكية لنفسه ولمن حوله أدي إلى ظهور نسقه الخاص به والذي يميز منهجه وأسلوبه .

وقد ظهر هذا النسق من خلال رفضه للفكر البنائي ووصفه بأنه محدود وغير دقيق . ونظرإلى أن الوعي) الشعور (الذي أهتم أصحابه) أصحاب النبائية (بتحليله أنه :

حالة شخصية فريدة .

أنه يتغير بأستمرار .

أنه يتطور باستمرار .

أنه له الحرية في أنتقاء مثير معين من بين المثيرات المتعددة وأنه يساعد على التكيف .

وهو بذلك خلافاً لفكر البنائين يحدد موضوع علم النفس " بأنه دراسة الوظائف العقلية . "

وأن الخبرة العقلية) الشعور ، والوعي (عملية شخصية مستمرة وانتقائية ويرى أنه لا يمكن تحليل الخبرة الشعورية إلى أجزاء أو عناصر شعورية تخضع لقوانين ميكانيكية فهو يرفض أن تكون الخبرة الذاتية) الشعور (مجموعة من الاحساسات المتتابعة والمتحدة مع بعضها البعض .

ويرى وليام جيمس أن الخبرة الشعورية سيل من الإحداث من جانب والفعاليات الذاتية وبذلك فالإنفعال ناتج عن تغيرات فسيولوجية لا استجابة لأحداث خارجية وقد نظر إلى أن مهمة علم النفس هي دراسة العقل بوصفه عملية ديناميكية توظف في تحسين عمليات التكيف مع المحيط وجعلها أيسر أكثر مرونة .

ومن هناك " يمكن توظيف العقل بفهم الغلبة الديناميكية له وقد ركز علماء هذا الاتجاه في الكيفية التي يحدث بها العمليات العقلية بدلا من دراسة الخبرة أو الشعور .

وقد أثر ذلك الفكر في أمريكا بوجه عام وظهرت مدرستين أو اتجاهين ينتميان إلى نفس الفكر الوظيفي الذي يرى أن العقل قادرعلى استثمار المعلومات . ونظرت إلى أن العقل ليس مدركتنا الحسية فقط ولكن وظيفيا العامل على استثمار المعلومات أو إنتاج الجديد .

وتلك المدرستين هما :

مدرسة شيكاغو " وقد أنصبت اهتمامها على ربط علم النفس بالحياة اليومية وكان من روادها جون ديوى الذي اهتم بكيفية عمل العمليات العقلية كي تساعد الناس على التكيف مع بيئاتهم الخارجية ومن روادها كذلك جمس أنجل .

مدرسة كولوميا : وقد تأثرت بجيمس من جانب وبنظرية دارون من جانب أخر وقد خرجت هذه المدرسة بفكرة متكاملة عن التوافق .

ومن روادها كاتل في القياس النفسي وثورندايك في تطبيق علم النفس في مجال التربية والتعليم .

هذه المدرسة أو ما أنبثق عنها في شيكاغوا أو كولومبيا تمثل نقطة إنطلاق في بعض فروع علم النفس حيث أنها لم تبق مدرسة على حالها ، فقد تفرع منها أنظمة فرعية كثيرة مثل علم النفس النمو وعلم النفس الصناعي والتربوي والحيواني .

وقد استخدمت هذه المدرسة المنهج) الاستبطان ..... والتقرير الذاتي (التجريب قدر المستطاع (والهدف لهذه المدرسة التعلم واكتساب المعرفة ومساعدة الإنسان على التكيف والنمو السوي والتعلم

أخيراً

يمكننا النظر إلىهذه المدرستين بأنها ساهمت في مواضيع علم النفس بجانبين جانب نظري وجانب عملي فمن الناحية النظرية عرفواعلم النفس علىأنه علم الشعور أما الناحية العملية فقد كانوا يدرسون الفعل كما يدرسون الخبرة الشخصية .

المدرسة الجشطالتية :

ظهرت هذه المدرسة ثائرة على النظام القائم) البنائية (على فونت خصوصاً وعلى المدرسة الارتباطية عموماً وكما نعلم أن المنهج الارتباطي مذهب أنحدر من القرنين السابع عشر والثامن عشر وقد سيطر بتوسع على نظرية علم النفس في القرن التاسع عشر ولكن ذلك التوسع لم يكن كاملاً .

وقد كان يميز الارتباطية ميزتان :

تهدف إلى التحليل .

تعتني خصوصاً بالجانب العقلي من الحياة (الكيمياء العقلية)

وقد أخذت الارتباطية أو نهج الكيمياء العقلية تبحث عن العمليات أو الخبرات وقوانين أرتباطها ولأنها غالبا ما أهتمت بالجانب العقلي فقد كانت تهتم بأبسط العمليات المعرفية أو أبسط الخبرات التي نعطي إلى معرفة ... وقد أخذت بالاحساسات البسيطة على أنها العمليات الأولية التي منها تتركب الخبرات والأفكار المركبة .

وقد كان ظهور هذه المدرسة ثورة على النظام وكذلك ظهور المدرسة السلوكية يأتي الحديث عنها بالنسبة للمدرسة الجشطالت .

فقد ثارت على التحليل كمشكلة أساسية في علم النفس وقال أصحاب هذا الاتجاه " إننا لن نتقدم في علم النفس بعد تحليل أي من السلوك أو الخبرة . "

وقد نظر أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الخبرة الكلية أكبر من مجموع الأجزاء ويعتقدون أنه لا يمكننا دراسة الاحساس الشعوري من خلال تحليله إلى عناصر أبسط منه ولكننا ندرسها كخبرة كلية .

"خاصية الكل لا توجد في الأجزاء "

وهذه المدرسة تؤكد الكل المنظم " التعبير الوجهي للانفصال والشخصية "

)الكلية المنظمة للسلوك هو المبدأ . (

أورد أصحاب هذا الاتجاه العديد من الأمثلة التي تؤيد فكرهم وتوجههم في دراسة علم النفس مثل ظاهرة فاي .. ودللوا بأن أي محاولة لتبسيطها وتفسرها فاشلة ونحن لا نستطيع أن ندركها إلا بصورة كلية وحدة واحدة .

ينظر إلى أن زعماء هذا الفكر هم كوفكا وكوهلر وفريتمر .

وقد صدر عن هذه المدرسة مجموعة من القوانين الإدراكية وساهمت كثيرا في تقديم المعرفة بالنفس الإنسانية إضافة إلى أنها ساهمت في مجال التعليم وخاصة التعليم عن طريق الاستبصار ومن هذه القوانين .

قانون التقارب .

قانون التماثل .

قانون الإغلاق .

قانون الشكل والأرضية .

قانون التشابه .

ولهذه المدرسة بحوث في مجال التفكير والتعلم والاستبصار .

ويذكر فرتمر أن هناك فرق بين التفكير الإنتاجي والتفكير الإبداعي حيث أن الأول يعتمد على المدركات والعادات والاشتراط في حين أن الثاني قائم على الأفكار الإبداعية والنشاط العقلي الخالص . ..